

الحقائق العلمية والإعجاز البياني في القرآن الكريم*

الأستاذ/ عبد المجيد عبد الرحمن بركات

وكيل جماعة دار العلوم

حضرات السادة الحضور .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..
يسرني أن أرحب بكم نيابة عن نفسي ونيابة عن جماعة دار العلوم في
هذه الليلة المباركة التي تحفنا فيها ملائكة الرحمة ، وتبارك حفلنا إنه حفل
كريم لطلاب دار العلوم الذين اجتازوا مسابقة القرآن الكريم في هذا العام
٢٠٠٩ ، لقد حرصوا على حفظ كتاب الله فاستحقوا الجائزة ، يقول
الرسول ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وهذا الاتجاه الحميد الذي
يقوم به نادى دار العلوم في كل عام بتكريم هؤلاء الطلاب وتشجيعهم
بالجوائز المالية على أكرم صورة ، وباعتزاز أدبي وفي جو روحى علمي
وفي نفس الوقت يهدف النادى إلى تحقيق شعور كامن في نفس كل مسلم
نحو كتاب الله والعمل على حفظه وتدبر معانيه والتمسك بتعاليمه.
ونرجو لأبنائنا الذين استعدوا للمسابقة قبل عقدها يكونون إن شاء الله مع
السفرة الكرام البررة .. إن المسلمين اليوم في حاجة إلى أن يسرعوا نحو

* نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ عبد المجيد بركات في حفل توزيع جوائز مسابقة القرآن
الكريم في ربيع الآخر ١٤٣٠، أبريل ٢٠٠٩.

كتاب الله وأن يلتمسوا مصدر القوة الكامنة في آياته حتى يغيروا ما هم فيه ، ويصبحوا جديرين بالانتماء إلى عباد الرحمن ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] . عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين» .. هذا الكتاب الذي يتجلى فيه الإعجاز العلمي في عصر يموج بالنشاط العلمي والتسابق المحموم بين الدول في مجال الكشف والاختراع ، وحان لأبنائه أن يعكفوا على ما في هذا الكتاب الكريم من إعجاز وبراهين تحقق لهم السبق والتفوق.

لقد أدرك علماؤنا هذا الجانب العلمي وأشادوا به في مؤلفاتهم ، وكان الشيخ طنطاوي جوهري صاحب كتاب: الجواهر في تفسير القرآن الكريم من أوائل من أدرك هذا ، وحمل لواء الدعوة إليه إنه يقول: "يا أمة الإسلام آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعًا في علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسبعمئة آية فيها عجائب الدنيا كلها .. هذا زمان العلوم هذا زمان نور الإسلام هذا زمان رقيّه يا ليت شعري لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث".

ويلبي نداء طنطاوي جواهر العديد من العلماء والدارسين منهم السيد عبد الرحمن الكواكبي ، والشيخ رشيد رضا ، وعبد الرزاق نوفل ، ومن المؤيدين بصورة كريمة وباهرة : الدكتور محمد عبد الله دراز الذي أفاض في الحديث في هذا الجانب إنه يقول إن القرآن في دعوته إلى الإيمان

والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية وحدها ، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية ، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة.

* ويعلق الدكتور محي الدين بلتاجي في كتابه "دراسات في التفسير وأصوله" بأن الغاية هي إبراز الوجه الإعجازي باعتباره يشكل حاجة في مواجهة اللاحادية العلمية التي لا تؤمن إلا بما يخضع للملاحظة والتجربة ، وتتكسر الدين الذي يرد العلة وراء الظواهر إلى الله مبدع الكون بما فيه وواضع نواميسه التي يسير عليها .

ونود أن نضيف إلى ذلك ما يطالعنا به الدكتور زغلول النجار من بحوث علمية وتاريخية سبق بها القرآن الكريم واعترف بها العلم الحديث ، ولقد قرأت له أخيراً بصحيفة الأهرام مقالاً حول هذا الجانب الحيوي نشر يوم الاثنين بتاريخ ٢٠٠٩/٤/٦ بعنوان من أسرار القرآن ، وعرض فيه الآية القرآنية على لسان سيدنا إبراهيم ﴿رَبِّنَا إِنِّي اسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم : ٣٧]. وقد استعرض جوانب عدة لتفسير الآية سأقتصر على بعض فقراتها حيث يقول من الشواهد المادية على كرامة الحرم المكي توسطه من اليابسة وانتقاء الانحراف المغناطيسي على مسار خط طول مكة ، وحماية الله تعالى له من الهزات الأرضية المدمرة والثورات البركانية العنيفة على الرغم من قربها من خسوف البحر الأحمر.

وحرصاً على الأمانة العلمية وعرض الاتجاهات المختلفة ، فهناك على الجانب الآخر من يعارض التفسير العلمي ، ومن أبرزهم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت حيث يعرض في تفسيره ما يفيد اتجاهًا مختلفًا يقول

الإمام الأكبر: فلندع للقرآن عظمته وجلاله ولنحفظ له قدسيته ومهابته ،
ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارات إلى أسرار الكون ومظاهر الطبيعة إنما
لنقصد الحث على التأمل والنظر ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم .

ويأتي صاحب الظلال سيد قطب فيعضض هذا الاتجاه قائلاً إن الحقائق
القرآنية نهائية قاطعة مطلقة ، وما يصل إليه البحث الإنساني أيا كانت
الأدوات المتاحة فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة وهي مقيدة بحدود
وتجارب ، وظروف هذه التجارب وأدواتها فمن الخطأ المنهجي بحكم
المنهج العلمي ذاته أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية.

واكتمالاً لهذا الأمر نعرض لرأى وخواطر الشيخ الشعراوي حيث
يتوسط في الأمر ، فيقرر الحقائق العلمية التي وصلت إلى اليقين وأصبحت
مسلمًا بها دون شك أو ريب ، فيربطها بالقرآن الكريم ويجعل القرآن برهاناً
عليها وليست هي برهاناً على القرآن .

أيها السادة الحضور لقد تناولت الإعجاز العلمي باختصار دون إطالة
حرصاً على الوقت ، كما كنت حريصاً على عرض ما سبق لكي يلم أبناءنا
بهذا الجانب المهم في علاقتهم بكتاب الله والاستفادة من حفظه وتلاوته:
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤]. وأود في هذا
الحفل وتلك المناسبة أن أشير إلى الجانب الآخر ، والمهم وهو الإعجاز
البياني في القرآن الكريم ، وسأعرض باختصار لثلاثة كتب لها دورها في
إبراز هذا الجانب:

- كتاب النبأ العظيم: للدكتور محمد عبد الله دراز.
- كتاب التصوير الفني في القرآن: لسيد قطب.

- كتاب نظرات في القرآن: للشيخ محمد الغزالي

يعرض كتاب النبأ العظيم للغة القرآن حيث يقول : فالجديد في لغة القرآن في كل شأن من شئون القول يتخير أشرف المواد وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة .

أما كتاب التصوير الفني في القرآن ، فيتناول الصورة البيانية ويجليها ويرى التصوير: هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فليس حلية أسلوب ولا فلتة يقع حيثما اتفق إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة وخصيصة شاملة ، وحتى تدرك آفاق التصوير الفني في القرآن الكريم تدرك أنه تصوير باللون ، وتصوير بالحركة ، وتصوير بالإيقاع ، وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار ، وجرس الكلمات ونغم العبارات ، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملأها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان .

ويعرض صاحب الظلال مثلاً لرسم الصورة المطولة تبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله في قوله الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ . [إبراهيم : ١٨]

إن هذا يذكرنا ببعض أبيات متواضعة يقول صاحبها:

يوم ريح بعثروه

إن حظي كدقيق

فوق شوك اجمعوه

ثم قالوا لحفاة

ويأتي كتاب نظرات في القرآن للشيخ محمد الغزالي فيعرض لإعجاز القرآن حيث يبرزه في وجوه ثلاثة الإعجاز النفسي الإعجاز العلمي الإعجاز البياني ، وقد سلط الشيخ الغزالي على الجانب النفسي وحصره في أربع نقاط هي :

١- مكانة الإعجاز التأثري. ٢- تأثير القرآن في المؤمن والكافر.

٣- تقدم الدليل المفحم على كل شبه ٤- مواضع التأثير في القرآن.

أيها السادة إن أسعد وقت يقضيه الإنسان في حياته هو أن يعيش مع القرآن الكريم بروحه وقلبه ويجعله نبراساً يضئ حياته وقبساً يمشي على ضيائه ونوراً يوضح له معالم المعرفة والهداية ، وإذا اتخذ الإنسان القرآن له أنيساً يتفهم آياته وسوره فإن القرآن سيفيض عليه من الروحانية والهداية ما يجعله كبير العقل يفعل كل خير وينتهي عن كل شر يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء : ٩].

فالقرآن كتاب هداية وإرشاد ويخرج الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور معرفة الله والإيمان به والاستجابة له وما من يوم يطلع شمسُه إلا وعشرات يدخلون في دين الإسلام لأنه دين الحق الذي لا غموض فيه ، ولا أسرار ، ولا طلاسَم ، ولا متناقضات ، وما حل النذل والهوان بالمسلمين إلا بسبب تكبهم عن طريق القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَزْزِيلٌ مَنْ حَكِيمٌ حَمِيدٌ﴾ [فصلت : ٤٢] . من هنا يجب أن يظل القرآن بعيداً عن النجل ودعاة الباطل الذين يعرضون القرآن لأُمور خارجة عن الهداية والإرشاد بنية نفع مادي أو أدبي ، يقول الرسول

﴿مَنْ تَعْلَمَ عِلْمًا مِمَّا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعْلَمُهُ إِلَّا لِيَصِيبَ بِهِ غَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. يقول ابن القيم في كتابه الفوائد: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله قال تعالى : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحي ، ووجد الشرط وهو الاصغاء وانتقى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه إلى شيء آخر حصل الانتفاع بالذكر.

وقبل أن أنتقل من هذا المعنى الممتع الذي يعرضه ابن القيم يروق لي أن أعرض أمثلة تدل على الدقة في ألفاظ القرآن التي تؤثر في القلب الحي ، وهذه بعض أمثلة معبرة عن هذا المعنى :

المثال الأول : عن سيدنا موسى حين تعرض لمواقف ثلاثة تتصل بإلقاء العصا التي كانت معجزته في كل حالة من الحالات .. كانت الحالة الأولى التي ألقى فيها العصا فانقلبت إلى حية وذلك عندما كان سائرًا بأهله ليلاً فأبصر ناراً فجاء ليأنس بها فناداه ربه بإلقاء العصا. ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه : ٢١ ، ٢٠]. فخاف موسى فأمره الله ألا يخاف لأن هذه معجزة جاءت على هذه الصورة .

ثم يأتي الموقف الثاني عندما ذهب إلى فرعون فطلب منه الدليل على صدق رسالته ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف : ١٠٧]. كانت العصا على شكل ثعبان مخيف لكي يرتعد فرعون ويؤمن بصدق موسى ، وحين جاء الموقف الثالث مع سحرة فرعون فقال له تعالى:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه : ٦٩].

وهكذا يعرض القرآن المواقف الثلاثة لإلقاء العصا ، فتكون حية في موقف ثم ثعباناً مبيئاً في موقف آخر ، وفي الوقت الثالث لا يذكر الحية أو الثعبان وإنما ابتعلت العصا جبال السحرة وعصيتهم ، وهكذا يأتي اللفظ في مناسبتة الدقيقة والسر الذي أراده الله تعالى في كل موقف من استخدام كلمة الحية ثم الثعبان .

والمثال الثاني في الدلالة على دقة الألفاظ فيقول الجاحظ وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس لا يذكرون الثغب ويذكرون الجوع في حالة المقدرة والسلامة.

كذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث قال تعالى في شأن المطر وما يقتزن به من عذاب: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٤]. ويقول عن الغيث وما يقتزن به من خير: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى : ٢٨] ، و فرق بين دلالة المطر ودلالة الغيث والمثال الأخير يتجلى في أسلوب النداء حيث إن الله تعالى يخاطب الإنسان أو الأشياء بذكر أداة النداء لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ، ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ ، أما نداؤنا نحو الله

سبحانه وتعالى فيأتي بغير ذلك حيث لم ترد آية واحدة خطاب من البشر لله سبحانه وتعالى بها أداة نداء ظاهرة ، وإنما يأتي النداء منوياً . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ، .. وقال يوسف : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . وبعد عرض تلك الأمثلة لدقة التعبير القرآني فإني أتوجه إلى أبنائنا الطلاب وأحملهم مسئولية الحفاظ على اللغة العربية الفصحى وحمائتها من زحف العامية وأقول لهؤلاء الأبناء إن الله جعل في القرآن من عناصر الخلود ما حفظه إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة تحقيقاً لوعده ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

وبقاء القرآن وحفظ الله له سوف تبقى الفصحى بإذن الله حيث حفظها الله بحفظ كتابه علماً بأن اللغات التي كانت في عصر نزول القرآن وبعد عصره انقرضت وظلت العربية مرفوعة الراية خفاقة في حياتنا الثقافية العلمية مع أهمية العمل على تطويرها في ظل التزام أصولها وقواعدها وأساليبها ، فلم يكن حراس اللغة العربية دعاة إلى تحجرها وجمودها . لقد وضع اللغويون والنحاة والبلاغيون حدوداً حصينة لها وطابقوا بها مذهب القرآن ، وكلام العرب وتركوا بعد ذلك للناس أن يستحدثوا ما شاعوا من أساليب ، وأن يتصرفوا ما شاعوا من أغراض بحيث لا تنقطع صلتنا بالماضي ولا صلة الأجيال المقبلة بالحاضر ، ويحلولي أن أردد مع الإمام البوصيري هذه الأبيات التي قالها في تكريم القرآن وصونه للغة العربية :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم

ردت بلاعتها دعوى معارضتها رد الغيور يد الجاني عن الحرم
لها معان كموج البحر في مدد وفوق جوهرة في الحق والقيم
قرت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بحق الله فاعتصم

ولا ننسى حافظ إبراهيم حين يقول على لسان اللغة العربية:
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضفت عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
وختاماً أدعو الله تعالى أن يوفقنا إلى عمل الخير وبذل الجهود لخدمة
الإسلام وحفظ كتاب الله تعالى والعمل بتعاليمه ، إنه نعم المولى ونعم
النصير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
